الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله الصادق الأمين وعلى أله وصحبه وبعد :

مـــازال المغـــرب العـــربى الإســـلامى يكون ميداناً هاماً من ميادين التاريخ الإســـلامى ، التى تحتاج إلى دراسة وبحث وتمحيص حتى يقف أبناء الأمة الإسلامية اليـــوم عـــلى معـــرفة منابع القوة الحقيقية التى تكفل لهم استرداد سألف عظمتهم ورسالتهم السامية فى خدمة الحضارة الإنسانية ذلك أن المغربى قد أسهم بدور فريد فى حمـــل رســـالة الإسلام وحضارته إلى أوروبا ، كما كان فى الوقت نفسه أرض الطـــليعة التى تعرضت للأحقاد الأوروبية الزاحفة على دار الإسلام، والدرع الذى كسر أنياب هذه الهجمة الحاقدة على الإسلام وأهله .

إن مدينـــة فـــاس الـــتاريخية فى المغـــرب العربى لهى واحدة من درر المدن الإسلامية الثقافية ، ولا يضاهى دورها فى المغرب الإسلامى سوى القيروان وقرطبة وكمـــا جـــاء فى المسالك للعمرى: أنها تشبه دمشق وغرناطة وأهلها يشبهون أهل الإسكندرية فى المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس .

ويقـــول القزوينى فى كتابه أثار البلاد وأخبار العباد صـــ ١٢ – ١٣ عن مدينة فاس : مدينة كبيرة مشهورة فى بلاد بربر على بر المغرب بين ثنيتين عظيمتين، والعمـــارة قـــد تصاعدت حتى بلغت مستواها، وقد تفجرت كلها عيوناً تسيل إلى

قـــراره إلى نهـــر منبسط إلى الأرض ينساب إلى مروج خضر، وعليها داخل المدينة ستمائة رَحًى ولها قهندز فى أرفع موضع فيها ويسقيها نهر يسمى المفروش .

وقـــال أبـــو عبيد البكرى : فاس منقسمة قسمين وهى مدينتان مسورتان يقال لأحدهما عدوة القرويين وللأخرى عدوة الأندلسيين ، وفى كل دار جدول ماء وعلى بابها رحى وبستان ، وهى أكثر بلاد المغرب ثماراً وخيراً ، وأكثر بلاد المغرب يهـــوداً ، فيهـــا يختلفون إلى سائر الأفاق، بها تفاح حلو يعرف بالأطرابلسى حسن الطعـــم جـــداً ، يصلح بعدوة الأندلسيين ولا يصلح بعدوة القرويين وسميذ عدوة الأندلســـيين أشجع من رجال القرويين ونساؤهم أجمل، ورجال القرويين أحمد من رجال الأندلسيين.

قال إبراهيم الأصيلى :

دَخَلْتُ فاساً وبى شَوْق إلى فـــاس والجبن يأخذ العينين والـــرأس
فلست أدخل فاساً ما حييت ولو أعطيت فاسا وما فيها من الناس

ويقـــول يـــاقوت فى كتابه معجم البلدان عن مدينة فَاسُ : بالسين المهملة بـــلفظ فـــاس النجار ، مدينة مشهورة كبيرة على برّ المغرب من بلاد البربر وهى حاضـــرة البحر وأجلُّ مُدُنه قبل أن تختطّ مَرَّاكشُ وفاس مختطُة بين ثنيَّتين عظيمتين وقـــد تصاعدت العمارة فى جنبهما على الجبل حتى بلغت مستواهما من رأسه وقد تفجَّـــرت كلُّها عيوناً تسيل إلى قرارة واديها إلى نهر متوسط مستنبط على الأرض منبجس من عيون فى غربها على ثُلُثى فرسخ منها بجزيرة دَوى ثم ينساب يميناً وشمالاً فى مروج خُضر فإذا انتهى النهر إلى المدينة طلب قرارها ليفترق منه ثمانية أنهار تشقُّ المديـــنة عليها نحو ستمائة رحَى فى داخل المدينة كلُّها دائرة لا تبطل ليلاً ولا نهاراً تدخـــل مـــن تلك الأنهار فى كل دار ساقيةُ ماء كبارُ وصغارُ وليس بالمغرب مدينة

يتخلّلها الماء غيرها إلا غرناطة بالأندلس ... وبفاس يُسمعُ الأُرْجُوَانُ والأكسية القِرْمزية وقلعتها فى أرفع موضع فيها يشقّها نهر يسنّى الماء المقروش إذا تجاوز القلعة أدار رحـاً هناك وفيها ثلاثة جوامع يُخطَب يوم الجمعة فى جميعها ... قال عبيد البكرى : مدينة فاس مدينتان مفترقتان مسوَّرتان وهى مدينتان عدوة القَرَوِيّين وعدوة الأندلسيين وعلى باب دار الرجل رحاه وبستانه بأنواع التمر وجداول الماء تخترق فى داره وبالمدينتين أكثر من ثلاثمائة رحا وبها نحو عشرين حماماً وعلى أكثر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها إلى جميع الآفاق ومن أمثال أهل المغرب فاس بلد بلا ناس ... وكلنا دوئى فاس فى سفح جبل والنهر الذى بينهما مخرجه من عين فى وسط بلد من عُسرة على مسيرة نصف يوم من فاس ... وأسّست عدوة الأندلسيين فى سنة ١٩٢هـ وعدوة القرويّن فى سنة ١٩٣ هـ فى ولاية إدريس ابن إدريس ومات إدريس بمدينة وليلَى من أرض فاس على مسافة يوم من جانب الغرب فى سنة ٢١٣هـ .. وبعدوة الأندلسيين تُفّاحٌ حلوٌ يعرف بالأطرابلسى جليل حسن الطعم يصلح بها ولا يصلح بعدوة القرويين وسميدُ عدوة الأندلسيين أطيب من سميد القرويين لحذقهم بصنعته وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أشجعُ وأنجدُ والجدُ من القرويين ونساؤهم أجمل من نساء القرويين ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين وفى كل واحدة من العدوتين جامعٌ مفردٌ ... وقال محمد ابن إسحاق المعروف بالجليلى :

يا عدوة القرويين التى كرمتُ ... لا زال جانبك المحبوب ممطورا
ولا سَرَى الله عنها ثوب نعمته ... أرضٌ تجنبت الأنام والزوار

وقال إبراهيم بن محمد الأصيلى والد الفقيه أبى محمد عبد الله :

دخلتُ فاساً وبى شوقٌ إلى فاس ... والحَيْنُ يأخذ بالعينين والراس
فلست أدخل فاساً ما حييت ولو ... أُعطيتُ فاسا بما فيها من الناس

وقال أحمد بن فتح قاضي ناهرت في قصيدة طويلة:

اسلَحْ على كلّ فاسي مررت به فالعدوتين معاً لا تبقَيَنْ أحـدا

قومٌ غُذُوا اللُّؤَم حتى قال قائلهم من لا يكون لئيماً لم يعش رَغُدَا

ومـنها إلى سـبتة عشرة أيام وسبتة أقرب منها إلى الشرق ... وقال إليكي يهجوا :

فرِاقُ الهمّ عند خروج فـاس لكلّ مُلمَّة تختبي وبـأس

فأما أرضيا فأجـلّ أرض وأما أهلها فأحسنُ نـاس

بلادٌ لم تكن وطأ لحـرٍ ولا شتملتُ على رجل مُواسي

وله فيهم ايضـاً :

أطعن يابرّك من تلقى من النـاس من أرض مصر على أقصى قُرى فاس

قومٌ يمصون ما في الأرض من لطف مصّ الخليع زمانَ الورد للكلام

وله أيضاً فيهم :

دخلتُ بلدةَ فاس أسترزق الله فيهم

فما تيسر منهـم أعَفتهُ في بنيهـم

وقـد نسـب إليها جماعة من أهل العلم ... منهم أبو عمر عمران بن موسـى بـن نجح الفاسي فقيه أهل القيروان في وقته نزل بها وكان قد سمع بالغرب ورحل وسمع بالمشرق جماعة من العلماء وكان من أهل الفضل والطلب وغيرهم .

ويقول الدكتور محمد كمال شبانة :

ويعـزز هذا القول ما جاء عند صاحب كتاب " جنى زهرة الآس " . في أخـبار فاس ، من قوله : " قال الحكماء : لا تستوطن إلا بلداً فيه سلطان حاضر ، وطبيب ماهر ، ونهر جار ، وقاض عادل ، وعالم عامل ، وسوق قائم .... " .

ويـــردف صاحب هذا الكتاب قوله ذاك بوصف أبناء فاس : " فلاعتداله اعـــتدل أهلـــه ، فسلموا من شقرة الروم ، وسواد الحبش ، وغلظ الترك ، وجفاء أهـــل الجَـــبال ، ودمامة أهل الصين ، وكما اعتدلوا فى الخلق واعتدلوا فى الفطنة والذكاء والعلم .... ، .

فلهذه القيمة التاريخية للمدينة ، وحفاظا على تراثها العربى الأصيل ، نرى أن فـــاس كانت نموذج المدينة الإسلامية فى مهرجان العالم الإسلامى الذى عقد فى لندن فى منتصف السبعينات. وقررت منظمة اليونسكو المشاركة فى إنقاذها كجزء مـــن التراث الإنسانى. ورصدت من أجل إنقاذها ٢٠ مليار دولار . كما وجهت نداء عالمياً يلح فى العمل على إنقاذها .

والآن ... مـــاذا يقول التاريخ فى صدد هذه المدينة تأسيساً وتخطيطاً ؟ يعـــزو بعض المؤرخين تأسيس مدينة فاس إلى إدريس الثانى ١٩٢ هـــ / ٨٠٨ م ، ابـــن إدريـــس الأول ١٧٢ هـــ / ١٧٥ هـــ ، اعتماداً على روايات قديمة، ولعل أول مـــن رددهـــا من جغرافى المشرق ابن حوقل فى القرن العاشر الميلادى [1] . ثم تـــولى تـــرديد هذه الرواية من لدن الجغرافيين . مثل ما جاء عند أبى عبيد البكرى الأندلسى، حين أورد وصفاً شاملاً لمدينة فاس . فقال : " إن هذه المدينة تتكون من مدينـــتين مختلفـــتين . ويحيط بكل منها أسوار ، كما يفصلها نهر شديد التياره وهو يسمى إحداهما "ضفة القرويين " والثانية " ضفة الأندلسيين، وتقع الأولى إلى الغرب من الثانية، كما يقرر فى وصفه هذا " أن المدينة الواقعة على ضفة الأندلسيين ، قد

---

(١) لقد جمع الأستاذ بلا شير المستشرق المعروف هذه الروايات فى مقال له بعنوان : فاس عـــند الجغـــرافيين العـــرب فى العصور الوسطى " المنشور فى مجلة : **Heuperis** هيبريس ج ، ١٨ ، سنة ١٩٣٤ م ، من صـــ ٤١ – ٤٨ .

تأسست عام ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م ، وأن مدينة " ضفة القرويين" قد أسست فى السنة التالية فى عهد إدريس بن إدريس " [١] .

ولقد جرى على هذا الوصف – من وجود مدينتين منفصلتين – جغرافيون قدامى . من أمثال اليعقوبى [٢] والمقدسى [٣] والإدريسى . وفى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى وجدت تفاصيل أكثر عن مدينة فاس فى المصنفات التاريخية المغربية، والتى تشير إلى ما ذكره المؤرخ ابن أبى زرع مؤلف " روض القرطاس" عن المدينة ، ونقلها عنه بعدئذ كل من الجزنائى فى " زهرة الآس " [٤]، وابن القاضى فى "جذوة الاقتباس " [٥].

وقد أورد المستشرق ليفى بروفنسال خلاصة رواية كتاب " القرطاسى " بالإضافة إلى المصنفات التى نقلت عنه ، مقتصراً على الجوانب المهمة فى الموضوع [٦] ، قال : "ولد إدريس الثانى فى أوليلى ، أو على الأصح وليلة ، فى كتلة زرهون الجبلية (جبل زرهون) ، بعد وفاة أبيه إدريس الأول بشهرين، وكان

---

(١) انظر : " جزائر بنى مزغنة " طبعة Desalre الطبعة الثانية ، الجزائر ١٩١١م ، صـ ١١٥ . طبعة أحدث بالجزائر أيضاً ١٩١٣ م ، صـ ٢٢٦.

(٢) انظر : " صفة المغرب " المأخوذة من كتاب "هذا" لأحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى ، نشره M. J. Dr Gode طبعة ليدن ١٨٤٠م صـ ١٩ .

(٣) انظر : أحسن التقاسيم ، طبعة Dr Gode ليدن ١٩٠٦م صـ ٢٢٩ .

(٤) نشرها وترجمها وعلق عليها بأسم زهرة الآس ، وهى تتناول تأسيس مدينة فاس – طبعة الجزائر عام ١٩٢٣ م .

(٥) انظر : الطبعة الحجرية لهذا الكتاب فى فاس سنة ١٣٠٩ هـ .

(٦) انظر : الإسلام فى المغرب والأندلس تأليف ليفى بروفنسال ، ترجمة د٠/ السيد محمود سالم ، د٠/محمد صلاح الدين حلمى صـ ٧ – ١٠ .

موت أبيه حادثاً محزناً ، لوفاته مسموماً على يد رسول خاص كان قد أوفده الخليفة العباسي هارون الرشيد سنة ٩٧٥ م (٧٩١م)/١٧٧ هـ (٧٩٣م) . وقد تولى رشيد عتيق إدريس الأول ورفيقه المخلص – مهمة تعليم الطفل حتى كبر ، وصار حاكماً سنة ١٨٨ هـ /٧٩٣م بإجماع قبائل البربر بمراكش – ثم مات رشيد بعد هذا بقليل . وفى نهاية السنة التالية – وهى سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥م – وجد إدريس الثانى أفواجاً من الهجرات العربية تنثال عليه ، مما جعل بعضاً من مسلمى إفريقية وإسبانيا تأتى إليه لتربط مصيرها بمصيره ، حتى ضاق مقامه بوليلة عن استيعاب هذا النمو المطرد من السكان، بحيث قرر لذلك إنشاء مدينة تكون عاصمة للملكة ، وكان أن وجد فى سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦م ، مكاناً مناسباً، يقع على السفح الشمالى لجبل زلغ . وبدأ فعلاً فى بناء المدينة ، غير أن عاصفة عاتية ما لبثت أن حطمت الأساس ... والمعدات ، فوقف دولاب العمل .

وفى السنة التالية – عند مطلع سنة ١٩١ هـ /نوفمبر ٨٠٦ م – قرر إدريس الثانى الاستقرار بجوار الضفة اليسرى لنهر سبو Sebou على مقربة مباشرة من ينابيع خولان – الساخنة ، حيث استحضر المواد اللازمة للعمل، غير أن مخاوفة من عواقب الفيضانات الفصلية للنهر أجبرته على إهمال مشروعه .

أما المحاولة الثالثة فإنها ستكون أوفر حظاً ، إذ يختار للمدينة أرضاً مغطاة بأعشاب جافة متشابكة ومغمورة بالمياة الجارية، ويعبرها نهير تغذيه ينابيع مجاورة . وهذا الموقع لحظة عمير وزير إدريس الثانى واقترحه عليه ، وكان قد أشتراه المحتلون من بربر زناته المنتمين إلى أحزاب منافسة، والمعتنقين للإسلام والمسيحية واليهودية، وحتى لمذهب عبادة النار نفسه . ثم يأتى إدريس الثانى نفسه ليستقر فى هذا المكان. بل ويصدر الأمر ببدء إنشاء المدينة على التحقيق فى أول أيام شهر ربيع الأول سنة ١٩٢ هـ / ٤ يناير ٨١٨م ، حيث يشرع فى بناء حى تخترقه ستة أبواب على

الأرض الواقعـــة على الضفة اليمنى من النهير. أما فى الداخل فيبنى مسجداً بجانب الآبار على مقربة من معسكر إدريس الذى يحميه سور من خشب، وقد أصبح هذا الحى أحد أحياء المدينة ، وسمى بأسم "حى الأندلسيين " .

بعـــد ذلـــك بعـــام على التحقيق – بحسب التوقيت الهجرى ، الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٨م – شرع إدريس الثانى فى تشييد حى جديد مواجه للحى الأول وقد أدى إنشاء هذا الحى إلى إغلاق أسواره لجزء صغير من مجرى النهير، كما أدى إلى امـــتداده بشـــكل ملحوظ على الضفة اليسرى من هذا النهير. ذلك الحى من المديـــنة هـــو الذى سوف يطلق عليه أسم " حى القرويين" الذى كان يشبه الحى المقـــابل له إقامة ستة أبواب أيضاً . أما فى داخله فنجد الحاكم يأمر ببناء مسجد ما لبث أن أقيمت حوله أسواق وقيسارية وقصر .

ثم لا يلـــبث هذا الإنشاء المزدوج الذى قام به إدريس الثانى إلا قليلاً حتى يمتلىء بالسكان بسرعة ظاهرة. وذلك بفضل التسهيلات العديدة التى منحها الأمير من وفدوا للإقامة فيه . وإن كان معظم النازحين إلى المدينة الشرقية من البربر . فى حـــين أن أكثر الوافدين إلى المدينة الغربية من العرب. وبسرعة كبيرة تحتفظ بهؤلاء المســـلمين وبطائفـــة ملحوظة من اليهود . ويأخذ هذا التجمع أسم مدينة فاس ، ويســـتقر فيها مع الأمير أسرته وحاشيته. ولم يكن فى ذلك الوقت قد تجاوز السابعة عشرة من عمره ، وظل بها إلى سنة ١٨٧ هـــ (٨١٢م – ٨١٣م) ، ثم رحل بعد ذلك فى حملة إلى الأطلس الكبرى عاد بعدها إلى مدينة فاس.ثم غادرها سنة١٩٩هـ (٨١٤م – ٨١٥م) مـــتجهاً إلى تلمســـان. وبعـــد هذا بثلاث سنوات عاد إلى عاصمته، التى استقبلت فى ذلك الحين حملة قوية من عساكر الأندلس ، ممن طردهم الحكـــم الأول أمير قرطبة الأموى ، وذلك عقب موقعة الربض ، وسمح لهم إدريس الثانى بالقرار فى الحى الشرقى ، ومنذ ذلك الوقت لم يبرح إدريس مدينة فاس .

بعـد هذا بعشرة أعوام – فى سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨م – مات إدريس فى ظـروف غامضة فى فاس نفسها، أو فى وليلة ، تاركاً مدينته المزودة يانعة مزدهرة، كمـا ترك عند وفاته أطفالاً كثيرين، كان منهم على الأقل إثنا عشر ولداً تقاسموا أملاكه .

ويعـترف ليفى بروفنسال فى سياق هذا الحديث عن مدينة فاس، بأن رواية صـاحب "القرطاس " قد اشتملت على تفاصيل كثيرة عن كل مرحلة من مراحل إنشـاء المدينـة المزدوجة، وأن هذا المصدر ذو قيمة نادرة بين المصادر الأخرى فى الموضـوع، حيث ضم المعلومات الطبوغرافية فيما يتصل بتخطيط الحيين وأبوابهما، وهـى معـلومات تكاد فريدة فى بابها إذا ما أضفنا إليها روايات البكرى التى المحنا إليهـا ، ولهذه المعلومات قيمتها التاريخية أيضاً عند القيام بالموازنة بين خريطة فاس الحالية بنظائرها التى كانت لنفس الموقع طوال القرون الأولى من التاريخ الإسلامى.

كذلـك يضيف صاحب "القرطاس" إلى ما سبق أن مدينة فاس قد نمت من بعـد وترعرعت بحركة العمران والمرافق التى استلزمت ذلك، ولكن الحيين اللذين اشـتملت عـليهما المدينـة كان لكل منهما مصير لا يواكب مصير الأخر . نظراً للأضـطراب الذى سادهما على مر التاريخ ، فهما تارة متضادان، وتارة متفقان ، حـتى عـدت السنون وجاء زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين (٤٠٠ هـ – ٥٠٠هـ) ليحطم الحواجز التى تفصلهما ، ويوحدهما بصفة نهائية فى مدينة واحدة عام ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩م . ومنذ ذلك الحين بدأت تستقر هذه المدينة الكبرى فى العصـور الوسـطى، التى لم تلبث أن أصبحت مركز الإسلام فى المغرب الأقصى بمواردها العلمية والصناعية والتجارية.

وتجـدر الإشـارة إلى أن ضفة القرويين هى (مدينة القرويين) الضاحية التى عمـرها سـكان المغـرب الأدنى الذين وفدوا من القيروان، وحيث بنى بها جامع

القـــرويين الذى أسسته السيدة فاطمة الفهرية، وستخصص له حديثاً يليق بماله من أثر إسلامى عظيم .

ولقـــد تضـــاءل من فاس السياسى فى عصر كل من المرابطين والموحدين ، حيـــث أتخذ هؤلاء من مراكش عاصمة لهم حتى أتى بنو مرين فأعادوا لفاس مجدها الإدارى وأتخذوها عاصمة لهم .

وإلى جـــوار فـــاس القديمة توجد فاس الجديدة التى بناها الأمير أبو يوسف يعقـــوب بن عبد الحق المرينى عام ٦٧٤ هـــ / ١٢٧٥ م ، وقد أطلقت عليها عدة أسماء كالمدينة البيضاء ، والبلد الجديد، والمدينة الجديدة.

إن فـــاس منذ القديم تحتل مكانة مرموقة من بين مدن المغرب لما ذكرنا، من أتخاذهـــا عاصـــمة للمـــلكة فترات من الزمن . وعلى الصعيد الإسلامى فإنها تمثل واحدة من المدن الثقافية الإسلامية، لما اشتملت عليه من جامعة عريقة وهى "جامعة القرويين" كما سنفصل القول بعدئذ .

مـــن أثارهـــا القديمـــة – على جانب القرويين – مدرسة أبى عنان المرينى ، وســـاعتها الشمســـية الغـــربية، ومدرسة العطارين، ومدرسة المصباحية، ومسجد الأندلس ، وزاوية إدريس الثانى مؤسس المدينة حيث يوجد ضريحه ، وكلها منشأت على الطراز الأندلسى المغربى كأروع أثار فنية ما زالت تحتفظ بروائها .

وتتصـــل فـــاس القديمة بفاس الجديد عبر حدائق أبو الجنود والغناء، وتعتبر أبـــواب فـــاس الجديـــد غريبة الشكل. كباب الشاكمة، وباب الدكاكين، وباب المعمـــارين، وتوجـــد قبور المرينيين على مرتفع يشرف على المدينة الواقعة فى سفح جميـــل أخاذ ، فى جوف صدفة من الأسوار العتيقة، وقد دفن بالمدينة – وخاصة فى أطـــرافها – كـــثير مـــن علمائها البارزين وقوادها المشهورين. بالإضافة إلى بعض

اللاجئين السياسيين أمثال لسان الدين ابن الخطيب التلمسانى المعروف ٧١٣هـ - ٧٧٦ هـ ، والذى وصف فاس بقوله :

رعى الله قطراً ينبت الغنى
وأفاقة ظل على الدين ممدود

نعم العربى الأسود بنى مرين ، ودار العبادة التى يشهد بها مطرح الجنة ومسجد الصابرين [١] .

أم القرى ، ومأم السرى ، وموقد نار الوغى ونار القرى، ومقر العز الذى لا يهضم، وكرسى الخلافة الأعظم، والجرية التى شقها ثعبان الوادى فما ارتاعت، والأبية التى ما أذعنت إذعانها للإيالة المرينية ولا أطاعت.

أى كلف وكلف ، ومتفق ومختلف، ومحاباة وزلف وقضيم وعلف ، وخلف عن سلف ، إنما الدنيا أو دلف [٢].

---

(١) مسجد الصابرين : أحد معالم فاس الإسلامية ، راجع : مجلة البحث العلمى ، (لسنة ١٢ - العدد ٢٤) يناير - أبريل ١٩٧٦ .

(٢) أبو دلف : هو أبو القاسم عيسى بن إدريس العجلى أمير الكرخ وسيد الرمة، وأحد الأجواد من الشعراء كان من رجال الرشيد وأبنه المأمون وقد عقد له الكاتب ابن طيفور جزاءاً خاصاً من كتابه (بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية) عند حديث عن المأمون وقد توفى أبو دلف عام ٢٢٦ هـ والشطر المذكور اقتباس من قوله :

إنما الدنيا أبو دلف ... بين مغزاه ومختصره
فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

سألت عن العالم الثانى [1]، ومحراب السبع المثانى، ومغنى المغانى ، ومرقص النادب والغانى، وإرم المبانى [2]، ومصلى القاصى والدانى ، هى الحشر الأول والقطب الذى عليه المعول، والكتاب الذى لا يتأول .

بلد المدارك والمدارس، والمشايخ والفهارس، وديوان الراجل والفارس ، والباب الجامع من موطأ المرافق ، ولواء الملك الخافق، وتنور الماء الدافق، ومحشر المؤمن والمنافق، وسوق الكاسد والنافق ، حيث البنى التى نظر إليها عطارد[3] فاستجناها، وخاف عليها الوجود أن يصيبها بعينه الحسود، فسترها بالغور وأخفاها[4]، والأسواق التى ثمرات كل شيء إليها قد جبيت، والموارد التى اختصت بالخضر وحبيت، والمنازة المخطوبة ، وصفاح الخلج المشطوبة، والغدر التى منها أبو طوية[5] .

بلد أعارته الحمامة طوقها
وكساه – ريش جناحه – الطاووس
فكأنما الأنهار فيه مدامة
وكأن ساحات الديار كئوس[6]

---

(١) ويقصد بالعالم الأول " الأندلس " يومئذ .

(٢) إرم المبانى : علم المبانى .

(٣) عطارد : نجم سيار قريب من الشمس .

(٤) التعبير كتابة عن موقع المدينة فى السفح المنخفض ، وهو حسن تعليل رائع لوقاية المدينة من عين الحسود بموقعها هكذا .

(٥) أبو طوبة : الريح الطيبة .

(٦) البيتان من قصيدة للشاعر ابن اللبانة يصف فيها جزيرة ميورقة .

أجـــتمع بهـــا مـــا أولده سام وحام ، وعظم الالتئام والالتحام، فلا يعدم فى مسالكها زحام، فأحجارها طاحنة ، ومخابـــــــــرها شاحنة، وألسنتها – باللغات المختـــلفة – لا حنة ، ومكاتبها مائجة ، ورحابها متمائجة ، وأوقافها جارية ، اللمم فيها – إلى الحسنات وأضدادها – متبارية ، إلى أخر ما وصفها به ... [1] .

جامع القرويين

يـــروى المؤرخون أن هذا المسجد كان فى الأصل جامعاً صغيراً يطلق عليه " جـــامع الشـــرف " وقد إقامه إدريس الثانى إبان حكمه فى " عدوة القرويين" وظل المسجد الصغير على حاله حتى عام ٢٥٤ هـــ. حيث كان فى فاس رجل من عرب القـــيروان يدعـــى محمد بن عبد الله الفهرى ، ثم وافته منيته ، وترك لابنتيه فاطمة ومريم ثروة كبيرة، فأهتمت فاطمة بجامع الشرفاء، وأنفقت جل نصيبها – من تركة والدهـــــا – فى تجديد بنائه وتوسعته، فتضاعف حجمه، وأقيمت له الصومعة التى مـــا تزال على حالها من التخطيط حتى يومنا هذا ، بعد أن أعيد بناؤها على نفس الطـــراز عـــندما جرى توسيع الجامع عام ٣٤٤ هـــ وتبلغ مساحة كل ضلع من أضلاع قاعدتها خمسة أمتار، بينما يبلغ ارتفاعها ٢٠ متراً ، وهى مكسوة بالقيشانى (الزليج) تعلوها قبة صغيرة .

يقـــول عبد الرحمن المراكشى فى شأن المدينة والمسجد، منوها فيهما بحضارة قرطـــبة والقـــيروان – حيـــث سكنها القرطيبون (أهل الربض) كما قدم إليها فى مرحلة أخرى جماعة من القيروان واقاموا بها .

---

[1] انظر : معيار الأختيار ، فى ذكر المعاهد والدياره ، لابن الخطيب تحقيق ودراسة وترجمة للإسبانية صـــ ٧٨ – ٨١ نشر المعهد الجامعى للبحث العلمى ، الرباط ١٩٧٧ م .

مدينة فاس هي حاضرة المغرب ، وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، عندما كانت قرطبة حاضرة الأندلس والقيروان حاضرة المغرب ، فلما أضطرب أمر القيروان وأمر قرطبة رحل عن هذه وهذه من كان فيهما – من العلماء والفضلاء فراراً من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس ... ومازلت تسمع المشايخ يد عونها "بغداد المعرب" وليس بالمغرب شيء إلا وهو منسوب غليها، وموجود فيها ومأخوذ منها، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ... " .

يشتمل المسجد حالياً على صحن مغطى مقوف يرتكز على أعمدة تعدادها ثلاثمائة وخمسة وستون بعدد أيام السنة. تزينها الأقواس ذات الإشكال المختلفة. فبعضها ذات عقد واحد بينما البعض الآخر متضاعف العقود . وتوجد عند القبة الرابعة أقدم لوحة فى الجامع إذ يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثالث الهجرى . وقد سجل عليها أن السيدة فاطمة الفهرية تطوعت ببناء الجامع ، وأن الأساس قد حفر فى أول رمضان سنة ٢٤٥ هـ .

وهناك لوحة أخرى بين افريز القبة المربعة. قد نقشت عليها الوثيقة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بعمله عن أمر الملك العادل ، الآمر بالخير والفضل ، أمير المسلمين، وناصر الدين ، على بن يوسف بن تاشفين ... وكان إتمام ذلك – بحمد الله وعونه وتوفيقه – فى شهر رمضان المعظم من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، ومعنى هذا أنه قد أضيفت على المسجد زيادات هامة وكبيرة بين عامى ٥٢٨ هـ و٥٣٩ هـ وصنع للجامع محراب ومنبر جديدان وكما أعيد بناء الأبواب التى تعتبر تحفة فنية رائعة، فقد كسيت الأبواب الخشبية بالنحاس ، وأقيم على كل باب قبة صغيرة، ولكل باب من هذه الأبواب الثمانية عشر مقرع

ذو حلقة معدنية كبيرة. وتزين واجهة الأبواب صفوف من المسامير ذوات الرؤوس.

هذا ، ويتوفر المسجد على خمسة مصادر للمياة، ومنذ القدم والمياة تجرى فى الجامع طوال العام . كما نعمه فى كافة أرجائه الإنارة الكافية، فقد كانت تكثر فيه السرج، وتغلظ الفتائل ، لأن فى الإضاءة بهاء للدين ، وأنا للمجتهدين ، ونفيا لمكانية الريبة، وهداية للسابلة، وتزيها، لبيوت الله من وحشة الظلام .

ولذلك ترى فى صحن الجامع الثريات الكبيرة التى تتفرق فى كافة أرجاء المسجد، وفى الوسط ثريا ضخمة وإلى جانبها ثريا أصغر، يروى أنها كانت فى الأصل ناقوساً حمل من إحدى المعارك التى جرت فى الأندلس، وكسى الجرس بثلاث حاملات للقناديل، ونقش عليه ، صلى الله على سيدنا محمد ... الملك لله ... والعزة لله ... وبالمسجد بعض من الأجراس الأخرى التى حولت إلى ثريات وكانت قد نزعت – بأيدى الجنود المسلمين – من أعالى الكنائس القشتالية شمال الأندلس .

ويلاحظ أن منبر المسجد قد صنع من خشب الصندل والأبنوس والجوز. وأن نقوشة مطعمة بالعاج، وبجوانبه زخارف وتوريقات تخلية دقيقة، وهو كغيرة من معظم المنابر المغربية – متحرك ، يخرج عند الخطبة فى يوم الجمعة ، ثم يعود ، بعد ذلك ويختفى داخل الجدران طيلة الأسبوع .

هذا وما أن أكتمل بناء الجامع فيما مضى حتى بدأ يؤدى رسالته، إلى جانب المساجد الكثيرة التى تغطى بها مدينة فاس، من حيث كونها مراكز لتثقيف المسلمين، وتبصيرها بأمور دينهم ودنياهم شأن معظم مساجد المدن الإسلامية فى المشرق والمغرب ، والتى لم تكن وظيفتها قاصرة على العبادة ليس إلاء بل تكوين المسلم الصالح تكوينا شاملاً للعبادات والمعاملات .

وطبيعى أنه لم يكن فى الحسبان عند إنشاء هذا المسجد أنه سيكون له شأن عظـيم ، وأنـه سيصير بمرور الأيام سجلا علمياً حافلاً لأعداد من العلماء المغاربة وسواهم من الوافدين من عدة أقطار لينهلوا من ينابيع المعروفة ولا سيما من القارة الإفريقية بحكم صلة الجوار والقربى .

وتمضى فترة على افتتاح جامع القرويين ، ويعمر بالمؤمنين لأداء الصلوات شـيئاً فشـيئاً ، ثم أخـذت الدروس الدينية طريقها إليه بفضل طائفة من العلماء والأسـاتذة أثناء النهار وبين العشاءين ، وذلك فى علوم التفسير والحديث والفقه، وكذا علوم اللغة العربية، فهكذا استدارت الحلقات العلمية للدورس فى هذه المواد. وأضـحى المسـجد مـنذ ذلك الحين مركزاً علمياً بارزاً بحيث استقطب العلماء والطـلاب من معظم مساجد المغرب، حتى صارت له القيادة فى هذا الميدان العلمى والثقافى .

ولقـد حظـى هذا المسجد العلمى بعناية ملوك المغرب الذين توالوا على الحكام فقد اضافوا غليه فى بناياته ووسعوا فى أرجائه، وذلك تمشياً مع تطور رسالته ونموهـا، ولم تـبخل دولـة — من الدول التى حكمت المغرب — عليه فى إمداده بالوسـائل الكفيلة بمواصلة رسالته العلمية السامية، ومن ذلك إلحاق خزانة متسعة ضمن العديد من الكتب العلمية، تتصدرها المئات من المخطوطات الثقافية، لعصور توالت ودول انتفضت بين المغرب والأندلس، فى شتى فنون المعرفة ، بحيث أضحت هذه الخزانة فى مجال المخطوطات —كماً وكيفاً — من بين أمهات الخزائن فى العالم .

وتروى المؤرخات المغربية خاصة أن قاضى القضاة بفاس كان يتولى إدارة شـئونها بحكـم أنـه كان بمثابة شيخ الجامع الأكبر، فقد كان يشرف على اختيار الأسـاتذة ، ووضع الشروط الواجب توافرها، فى راغبى الدراسة من الطلبة، كما يحـدد المـواد الدراسية، والمؤلفات العلمية التى هى مادة التدريس ، بالإضافة على

إشـــرافه على منح الإجازات العلمية بالاتفاق مع العلماء المختصين، وتلقيه العطايا مادية وعلمية، للأنفاق على العلماء والطلبة .

لقـــد كان مسجد القرويين ملتقى فكرياً لعديد من الشيوخ الفقهاء الذين عاصروا المراحل الأولى من تاريخه، حيث كانوا يمارسون مهمة الوعظ والإرشاد لا يبـــتغون مـــن وراء ذلـــك سوى الأجر والثواب عند ربهم، بالإضافة على بعض الـــدروس العلمية أحياناً، وهكذا أضحى المسجد فى العصور المتوالية يمح بكثير من العـــلماء المرموقين من داخل المغرب ومن الأقطار الإسلامية المجاورة خاصة، حبا فى العلم والتدريس، واستجابة لرغبة بعض ملوك المغرب، الذين مدوا يد العون لهؤلاء العلماء، لا سيما فى الوقت الذى كانت فيه مدينة فاس العاصمة الإداريـــــــــة (عصر المرينيين) وحيث تهيأت للفقهاء الوافدين وسائل الإقامة إلى جوار القرويين ، فأضـــحوا متفرغين للاشتغال بالعلم والتدريس، وعملوا على رقى النهضة الثقافية بالمغرب، مما كان فى أثر واضح فى ازهار جامع القرويين والارتقاء بمستواه التعليمى.

ولم تكـــن عـــناية أولى الأمـــر بالمغرب نحو القرويين قاصرة على الفقهاء والمدرســـين سواء – منهم المغاربة أو الوافدين ... بل شملت هذه العناية – كما أشـــرنا – طـــلاب العـــلم المواطـــنين والقادمين من الأقطار الإسلامية، وكان من الضـــرورى بالـــتالى – وقد تضاعفت أعدادهم بمرور السنين – أن تهيأ لهم اسباب المعيشـــة ووسائل الدرس والتحصيل . وقد كان توفير السكنى لهم قرب الجامع من أهـــم ما كان يشغل بال القائمين على الأمور العلمية بفاس . وهكذا بدأت فكرة إنشاء المدارس العلمية بفاس ، وهكذا بدأت فكرة إنشاء المدارس العلمية المشتملة عـــلى دور السكنى فى الأحياء القريبة من القرويين منذ عصر المرابطين . ففى عام ٦٧٠ هـــ أسســـت مدرســـة الحلفاويين . وفى عام ٧٢٣ هـــ أنشئت مدرسة العطـــارين ، ثم المدرسة المصباحية عام ٧٤٥ هـــ ، والمدرسة العنانية . أما فى المدن

المغـربية الأخرى فقد أقيمت مدرسة ابن يوسف بمراكش فى عهد المرابطين وكانت هـذه المـدارس فى مجموعهـا تشتمل على الخزانات العلمية التى تجمع العديد من المراجع والمصادر فى مختلف العلوم .

نظام الدراسة

لم تكـن الدراسة فى القرويين فى بداية عهودها ذات نظم معينة أو شعب متخصصـة، بـل كـانت تتناول سائر الفنون المعروفة يومئذ، ومعظم العلوم التى تتـناولها الكـليات الجامعيـة اليوم . وبالتالى فقد كانت تدرس بها العلوم اللغوية والأدبيـة، والعـلوم الإنسـانية، والعـلوم الرياضية والطبيعية، ولكن الدراسات الإسـلامية هـى الـتى كانت تحض بقدر أكبر، وتحظى باهتمام أعظم، كالتفسير وعـلومه، والحديـث وعلومه ، وأصول التشريع الإسلامى ، وعلوم فقه المذهب المالكى، مع اعتماد المؤلفات الأصلية والمشهورة فى المغرب والمشرق .

وعندما يلتحق الطالب بهذه الجامعة فإنه كان عليه أن يدرس عدة سنوات قـد تصـل عـلى عشـر أو أكـثر ، يلازم فيها تلقى العلم على مختلف العلماء المتخصصـين ، وخلالهـذه الدراسة يتعرف الأساتذة على طلابهم النابغين ، الأمر الـذى يخولهـم — بعـد فترة من الوقت يختبرون خلالها معلوماتهم — أن يمنحوهم الإجـازات العـلمية طبقاً لتبريزهم وتفوقهم، ويقام حفل خاص توزع خلاله تلك الإجـازات الـتى تجيز لهم حق التدريس أو شغل الوظائف الرسمية كالقضاء .. والعدالـة .. وأحياناً بعض المناصب الرئيسية كالوزارة .. أو السفارة ، حسب الاستعدادات والخبرات العامة فوق الحصول على الإجازة العلمية .

أمـــا الطلبة الوافدون من الأقطار الإسلامية الأخرى، فإنهم بحصولهم على تلك الإجازة يصبحون فى وضع يمكنهم من أداء واجبهم نحو أوطانهم، فيعودون إلى بلادهم لنشر الدين وتقلد الوظائف التى تناط بهم فى حدود إمكانياتهم العلمية .

وتجدر الإشارة – بهذه المناسبة – إلى أن جامعة القرويين تضم خزانة علمية كبرى، بحيث تغطى احتياجات العلماء والمدرسين، وتواكب النمو العلمى للطلاب والباحـــثين، من مصادر رئيسية هامة، ومراجع فى شتى ألوان المعرفة، ولاشك فى أن العناية التى كان يوليها ملوك المغرب للقرويين كانت تتناول – بطبيعة الحال – تلك الخـــزانة التى أوقف عليها هؤلاء الملوك ووزرائهم العديد من الكتب ، إلى جـــانب مـــا كـــان يجـــلب مـــن هذه المصادر من بلاد العالم، حتى غصت الخزانة بآلاف المخطوطات النفيسة التى يقل نظير بعضها فى المكتبات الوطنية فى الخارج، حتى قيل إن تعـــداد هـــذه الكـــتب يكاد يبلغ ثلاثين ألفاً بين علوم وفنون وآداب لمختلف المؤلفين فى العصور الإسلامية.

من تقاليد القرويين

إن طـــريقة الدرس والبحث فى ساحة القرويين تتميز ببعض الخصائص ، وذلك فيما يتصل بطريقة تلقى الدروس ، حيث كانت تعقد الحلقات الدراسية من حول الأستاذ الذى يعلوها بمنصة خاصة ، وفيها يطلب من بعض تلاميذه أن يفتتح الـــدرس بالبسملة، ثم قراءة النص المراد شرحه فى المادة ، وبعدها يبدأ الأستاذ فى الشرح ، وأخيراً يطلب من أحد التلاميذ قراءة ما ورد من نص فى الكتاب المقرر .

وخـــلال هـــذه القراءة يستطرد الأستاذ مع الطلاب بالتعليق والتوضيح أيضـــاً، والاستشـــكال فى بعض المواطن أحياناً، وتلك هى الطريقة التى كان يسير عـــليها "الجامع الأزهر " فى تلك العصور وهى الطريقة المثلى لهضم المادة والأتيان على جوانب البحث فيها ، بما يعمق المعرفة ويؤصلها لدى طالب العلم .

وهكـــذا يـــبدو كيـــف اســـتوفى جامع القرويين أسباب نموه وازدهاره، وأستكمل رسائل نهضته منذ عهد مبكر ، وأثناء فترات متتالية، ومراحل متواصلة، وخاصـــة مـــنذ عهد مبكر ، وأثناء فترات متتالية، ومراحل متواصلة، وخاصة منذ عهـــد الدولة المرينية ، حيث توافرت له عناصر الجامعة، وثبتت له الصفة الجامعية، وتحققـــت له الشخصـــية المعنوية ، وأصبح معها مؤسسة علمية أكاديمية، تذكر فى المشـــرق وغـــيره من البلاد كما تذكر فى المغرب ، وتضاهى مثيلاتها من الجامعات الإسلامية المشهورة .

وأســـتمرت جامعة القرويين عامرة تواصل سيرها الحثيث ، متخطية كل الصـــعاب ومـــتحدية كل العقبات، تؤدى رسالتها العلمية والحضارية من جيل إلى جيـــل، محافظة بذلك على التراث الإسلامى، وأصالة الأمة المغربية، فانجبت العلماء الأفـــذاذ والشيوخ الكبار الذين علموا وكتبوا ودرسوا وألفوا ممن تزخر بهم كتب تـــاريخ المغـــرب وتـــراجم رجاله، وتذكرهم الأجيال الماضية والحاضرة، وتخلدهم مؤلفـــاتهم القـــيمة ، الـــتى كـــانت وما تزال أهم المصادر والمراجع فى البحوث والدراسات الإسلامية [1].

---

(١) منهل جامعة القرويين : إصدار مديرية التعليم الأصيل بالمغرب (١٩٧٦ م) .

جامعة القرويين حديثاً

حظيت هذه الجامعة ضمن قطاع التعليم فى المغرب بعناية أولى الأمر ، لتكتسب مظاهر واضحة التقاليد ، ولتبرز لها خصائصها الجامعية بما يواكب حضارة العصر الحديث جهد الطاقة وقدر الاستطاعة، وقد كان أبرز مظاهر التطوير والتجديد هو التنظيم الذى أدخل على سير الدروس لتلائم فى مجموعها مستويات الطلاب عامة، وهكذا نرى السلطان المولى محمد بن عبد الله، الذى أصدر منشوراً عام ٢٩٣ هـ / ١٧٨٩ م ، فى صدد هذه الجامعة ، وخصص لتدريس كتب معينة بها وتقرير مواد خاصة للدراسة، ثم تلاه السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام، الذى وجه خطاباً بتاريخ ١٢ محرم ١٢٦١ هـ إلى قاضى القضاة بفاس وفيه يشير عليه بأن يوجه أنظار المدرسين بالقرويين إلى أن يعملوا ما فى وسعهم لمصلحة الطلاب ، وتيسير مهمتهم العلمية .

أما السلطان المولى يوسف فقد طلب من العلماء فى رمضان ١٣٣٠ هـ (سبتمبر ١٩١٢ م) عقب توليه السلطة أن يعدوا له تقريراً حول إضافة بعض المواد فى الدراسة، كما أمر بتأسيس " مجلس علمى " توكل إليه أمور الجامعة ، ويضم طائفة من علماء القرويين المتمرسين بالشئون العلمية والإدارية.

وفى ٢٠ جمادى الأولى ١٣٣٣ هـ (١٩١٥/٤/٥م) وبعد سنة من تأسيس المجلس العلمى وردت رسالة مخزنية تحمل الأمر بجعل الانخراط فى صفوف العلماء متوقفاً على النجاح فى الامتحانات واجتياز مباراة .

وفى ١٦ ربيع الثانى ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧/١٠/١٣م) صدر ظهير يفيد أن رواتب العلماء قد زيد فيها، وأنه قد تأسس بالرباط مجلس أعلى برئاسة السلطان المولى يوسف، وعضوية الصدر الأعظم، ووزير العدلية والأوقاف

والحـــاجب، وتقضي بتعيين أمين ورقيب ، وكان يعد المجلس بمثابة هيئة عليا تراقب المجلس العلمي بفاس [1].

وهكذا ... واصلت جامعة القرويين رسالتها في حدود الإمكانيات التي أتاحتها لها الظروف المعاصرة، وخاصة في مرحلة الاستعمار الأجنبي ، إلى أن قيض الله لهـــذه الـــبلاد أن تـــنال استقلالها عام ١٩٥٦ م بقيادة الملك محمد الخامس ، والذي رأى أن يعيد النظر في شئون الدراسة بجامعة القرويين ، بحيث تستقطب أكبر عدد من طلاب العلم من الداخل والخارج ، ولتسير الجامعة وفق مقتضيات العصر الحاضـــر ، على أسس منهجية في دراستها، وحتى تنتهي تلك الدراسات بمؤهلات علمية تتعادل مع مؤهلات الجامعات المناظرة، ليمكن لخريجها أن يشقوا طريقهم إلى الوظائف المناسبة في الدولة .

مراحل التطوير للجامعة قبل الاستقلال

وفي هـــذا الصـــدد صدرت عدة ظهائر وقرارات تتعلق بإدخال التنظيم الجديد على جامعة القرويين .

١ - ففـــي ٢٦ ذي الحجـــة ١٣٤٨ هـــ (٢٥ مايو ١٩٣٠ م) صدر ظهير شريف يعين المدرسين، ويرتبهم ثلاث مراتب وينفذ لهم رواتبهم .

٢ - وفي ١٠ ذي القعـــدة ١٣٤٦ هـــــ (٢٦ مارس ١٩٣١ م) صدر ظهير شـــريف ، يســـند تعيين الفنون والعلوم المدروسة والتأليف التي تدرس بها للمجـــلس الأعـــلى، إلى جانب من ضابط بتنظيم التعليم ، وتحسين طرقه بالقرويين .

---

[1] منهل جامعة القرويين - إصدار مديرية التعليم الأصيل بالمغرب ١٩٧٦ م .

٣ – وفى ١٠ ذى الحجـــة ١٣٤٢ هـــ (١٤ مايو ١٩٣١ م) فتحت إدارة المجـــلس العلمى أبوابها فى وجه الطلاب الذين يريدون الانخراط فى النظام، ودشنت الدروس النظامية فى ٨ شوال ١٣٥٠هـــ (١٦ فبراير ١٩٣١م) .

٤ – وفى ١٠ ذى الحجـــة ١٣٥١ هـــ (٣١ مارس ١٩٣٣ م) صدر الضابط المسنون فى أحد عشر فصلاً ، يتضمن تقسيم الدراسة إلى ثلاث مراحل :

أ – ابتدائية ، ومدتها ثلاث سنوات .

ب – ثانوية ، ومدتها ست سنوات .

ج – عاليـــة ، ومدتهـــا ثـــلاث سنوات ، وتحتوى على شعبتين شرعية، وأدبيـــة ، وتنـــتهى بتخويل المتخرج شهادة " العالمية" وهى أعلا شهادة كانت تمنحها جامعة القرويين .

" كما نص هذا الظهير على تحديد المواد المدروسة، وتعيين الكتب المقررة، وعـــلى الزيادة فى عدد العلماء المدرسين. ورفع رواتبهم، وتحديد مهمة المراتب ، والحفـــل الأسبوعية والفصلية ، ونظام الامتحانات، والوظائف التى تخولها مختلف الشـــهادات، إلى غـــير ذلك من التنظيمات التى كانت من أعظم مكاسب جامعة القـــرويين فى عهد محمد الخامس، وأساساً للمكاسب والإصلاحات التى تمتعت بها هذه الجامعة بعد الاستقلال [١] .

وما أن أشرق فجر الحرية على البلاد، حتى حظيت القرويين بعناية خاصة من ساكن الجنان الملك محمد الخامس، حيث كان وعد بمزيد من الرعاية والاهتمام بهـــا، تقديراً منه لهذه الجامعة العتيدة، والتى حفظت للبلاد دينها الإسلامى ولغتها العـــربية فيما انصرم من العصور، وهكذا تفضل بزيارة خاصة لمسجد القرويين ،

---

[١] منهل جامعة القرويين – إصدار مديرية التعليم الأصيل بالمغرب ١٩٧٦ م .

وخطـــب فى طلابها وعلمائها مشيداً بدور الجامعة الحضارى، ومؤكداً العزم على مواصـــلة إصلاحها ورعايتها، وذلك بما يكفل لها أداء رسالتها على أحسن وجه، وقد استهل هذا النظر الكريم بتأسيس لجنة عليا للسهر على إصلاح التعليم بصفة عامـــة، وجامعـــة القرويين بصفة خاصة، كما خصصت لها غدارة لرعاية شئونها بـــوزارة الـــتربية الوطـــنية ، بحيث تشمل معاهدها الابتدائية والثانوية إلى جانب كلياتها، وخصصت لكل هذا الأبنية المناسبة ، وبذلك انتقلت الدراسة من المسجد والجوامع التابعة إلى مدارس حديثة مجهزة علمياً ، مما كان له أكبر الأثر فى النهوض بالتعليم الدينى فى المغرب الحديث .

وهـــذا وتدخل فى نطاق القرويين للتعليم العالى كليات ثلاث على النحو التـــــــــالى :

١ – كلية الشـــــريعة ، ومقرها مدينة فاس .

٢ – كلية أصول الدين ، ومقرها مدينة تطوان .

٣ – كلية اللغة العربية ، ومقرها مدينة مراكش .

وقـــد نـــالت جامعة القرويين العناية اللائقة بها فى وقتنا الحاضر من لدن جلالـــة الحســـن الـــثانى ، حيث كانت فى حاجة إلى المزيد من الرعاية والاهتمام. وذلك حفاظاً على الثقافة الإسلامية، ونشراً لها فى طول البلاد وعرضها .

وفى الخطـــب السامية لجلالته ، والظهائر الملكية . والمراسيم الوزارية التى تســـتهدف – الـــنهوض بجامعـــة القـــرويين ومعاهدها . وتزويدها بالإمكانيات الضـــرورية، وإعادة النظر فى برامجها ومناهجها، وتحديد الدراسات التى تختص بها كـــل كلية من كليات هذه الجامعة . مما يجدد شبابها، ويعطيها نفساً جديداً يساعد عـــلى تخريج العلماء المتضلعين فى علوم اللغة العربية، والفكر والحضارة والشريعة

الإســـلامية، وعـــلى بعث حركة ثقافية ونهضة علمية شاملة ، تنعكس أثارها على التكوين المتين والتثقيف، لتؤدى الجامعة رسالتها التاريخية داخل المغرب وخارجه .

التنظيم الحديث لجامعة القرويين

وفى هذا الصدد كان جلالته قد أصدر ظهيراً شريفاً بتاريخ ١٢ رمضان ١٣٨٢ هـــ (٦ فـــبراير ١٩٦٣م) بإعادة تنظيم جامعة القرويين تنظيماً جديداً يتلاءم وروح العصر الحديث شكلا وتربوياً بما يحقق النهوض بهذه الجامعة. ويكتمل معـــه إطارهـــا العام بمختلف الكليات ، ويستجيب لتحقيق الغاية المنشودة منها ، بـــتكوين عـــلماء متخصصـــين فى فروع العلم والمعرفة، يشغلون وظائف عامة فى الدولة، يقومون بخلق نشاط فكرى وثقافى وحركة علمية فى هذا المضمار .

وقد تضمن الظهير المذكور العناصر التى اقتضاها إصلاح الجامعة، وإعادة تنظيمها من جديد، فحدد اختصاصاتها وأهدافها ، وأعطاها صبغة المؤسسة العمومية المتمـــتعة بالشخصية المعنوية، كما حدد الكليات التى تشتمل عليها الجامعة، وهيئة التســـير التى يمثلها مجلس الجامعة، ووضعية رجال التعليم بها ، واختصاصات كل كلية، والإجازات الوطنية التى تسلمها.

وقـــبل أن ننهى الحديث عن جامعة القرويين يطيب لنا أن تقطف فقرات ممـــا ســـطره بعض الكتاب الأوروبيين ، الذين نوهوا بالدور الثقافى والإنسانى لهذه الجامعة :

١ – فقـــد كتب ديلفان فى كتابه " فاس وجامعتها" يقول : مدينة فاس دار العلم بالمغرب ، التى بها جامعة القرويين ، تعد أول مدرسة فى الدنيا .

٢ – وكتب المستشرق الروسى " جوزى كريستوفيتش " مقالاً ، ترجمته مجلة الهلال المصرية (أبريل ١٩٥٦ م) قال : فإن أقدم كلية فى العالم ليست فى أوروبا – كما يظن – بل فى إفريقيا فى مدينة فاس ، فقد تحقق بالشواهد التاريخية أن هذه المدرسة كانت تسمى " جامعة القيروان " – ويقصد القرويين – والتى لست فى الجيل التاسع للميلاد ، وعليه ليست فقط أقدم كليات العالم ، بل هى الكلية الوحيدة التى كان يتلقى فيها الطلبة العلوم السامية فى تلك الأزمنة، حين لم يكن فكان باريس وأكسفورد وبولونيا يعرفون من الكليات سوى الإسم، فكان الطلبة يتواردون على كلية (القرويين) من أنحاء أوروبا وبريطانيا فضلاً عن بلاد العرب الواسعة للأنخراط فى سلك طلابها وتلقى العلوم باللغة العربية مع الطلبة الطرابلسيين والتونسيين وغيرهم، ومن جملة من تلقى علومه – فى هذه المدرسة من الأوروبيين – جيربرت أو البابا سيلفستر، وهو أول من أدخل إلى أوروبا الأعداد العربية، وطريقة الأعداد المألوفة عندنا بعد أن – أتقنها جيداً ... " .

٣ – وذكر الكاتب البريطانى روم لاند أنه : شيد فى فاس فى أيامها الأولى جامع القرويين ، الذى هو أهم جامعة وأقدمها ، وهنا كان العلماء منذ ألف سنة يعكفون على المناظرات الفلسفية والأبحاث الدينية، وكان المثقفون يدرسون التاريخ والعلوم والطب والرياضيات ، ويشرحون أرسطو وغيره من مفكرى الإغريق، وقد تطورت على نحو ما حدث فى جامعة السوربون التى كانت أول أمرها تعطى بعض الدروس فى اللاهوت، يلقبها أحد الرهبان فى حجرة قريبة من نوتردام فى باريس، ثم اقام أحد المحسنين مترلاً

لإيـــواء الطلبـــة الفقـــراء، وهكـــذا كان الحال فى جامعة أوكسفورد وسلامنكاه.

فلهذا حرصت كل الحرص على تقديم عملاً جديداً فى سلسلة ذخائر العرب التاريخية إلا وهو كتاب " زهرة الأس فى بناء مدينة فاس " المعروف بتاريخ مدينة فـاس للإمام الجزنائى المتوفى أواخر القرن الثامن الهجرى وقد أغفلته كتب التاريخ والسـير فى الترجمة له فهو مجهول المولد والوفاة . إلا أن الكتاب يحتوى على تاريخ المغـرب منذ الحكـم الرومانى حتى عصر المرابطين والموحدين بطريقة تبين مهارة وتفـوق الكـاتب من الناحية التاريخية والأثرية واللغوية والفقهية. فكتاب صورة مصـغرة لـتاريخ مصـر من الأمصار الإسلامية وهى مدينة فاس صاحبة الحضارة العـريقة فهـى لا تقـل أهمية عن القيروان ودمشق وبغداد بل أحياناً تفوق هذه الأمصـار فى بعـض الفترات خلال العصور التاريخية المختلفة. ومن هنا كان من الواجـب علينـا إبراز تراثنا المجهول حتى يستفيد عالمنا بعظمة الحضارة الإسلامية، فالكـتاب عبارة عن موسوعة مختصرة عن مدينة فاس على مر العصور الإسلامية، وقد اعتمدت فى إصدار وإخراج هذا العمل على عدة طبقات قديمة ومخطوطات فى دار الكـتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة مع وضع بعض التعليقات والتحقيقات وعمل فهارس وكشافات عامة لتسهيل على الباحثين والدارسين .

وإلى الله في الدعوة والنفرة وإلى خير سبيل ....

مقدمه

مديحه الشرقاوى

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، الحمد لله الذى جعل الحمد فاتحة الكتاب ، وأول كلام الخلق يوم الحساب ، وصلى الله على سيدنا محمد المنتخب من لباب الألباب والرضى عن آله وصحبه فأكرم بهم من أهل وأصحاب وبعد :

يحتوى هذا الكتاب على بابين :

الباب الأول : فى ذكر من أسسها من الأدارسة الحسنيين .

الباب الثانى : فى ذكر من أدارها بالأسوار وذكر جوامعها وما إنتهت إليه من الدور والحمامات وما جاء من الثناء عليها وعلى ساكنها من العلماء المرضيين .